دور بني عامر في تاريخ الغرب الجزائري
أيام الدولة الزيانية

د. عبد الحميد حاجيات
قسم التاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية
جامعة -تلمسان-

الملخص:

يعـــد بنو عامر من قبائل العرب التي كان لها دور هامّ في تاريخ الغرب الجزائري عامّة ، وفي منطقة سيدي بلعبـــاس خاصّة . ولفصائل هذه القبيلة أدوار مشهورة ، ومواقف بطولية تشهد على ما كانوا يتـــصفون به من عِزة وشهـــامة وشدة بأس . و قد تألـــق نجم هذه القبيلة بالغرب الجزائري منذ زمان طويل ، ولذا ، فنظرًا لسعة الموضوع واستحالة استيفاء كل مراحله ، ولو بصفة موجزة ، فلا يسعنا، في حديثا هذا ، إلا الاقتصار على عرض بعض الصفحات من تاريخ بني عامر .

فمن المعلوم أن بني عامر ينتمون إلى قبائل العرب الهلاليين ، الذين قدموا إلى بلاد المغرب الإسلامي في أواسط القرن الخامس الهجري ، و استوطنوا أراضيَ جنوب إفريقية ،ثم الـــهضاب الواقـــعة جنوب التـــل بالمغرب الأوسط . ويرجع أول عهد لاستقرارهم بالـــغرب الجزائري إلى بداية الدولة الزيـــانية . وذلك أن يَغمراسَن بن زيان استقدمهم إلى المنطقة الـــمحاذية لتلمسان ، عاصمة دولتـــه ، ليكونوا حاجزًا بينها وبين عرب الـــمَعْقِل ،و ليقوموا بحماية بلاده من غارات الـــمعقل الـــمحالفين لبني مرين . فكانوا يقطنون أراضيَ التـــل ، شمال تلك المنطقة ، في الربيع والصيف ، ويرتادون نواحيَ الـــهضاب العليا في المَشاتي(1).

وكان لبني عامر مواقف في الصراع الطويـــل الذي كان قـــائمًا بين بني زيان وبني مرين. فخاضوا غِمار حروبـــها ، و كان معظمُهم أنصارًا أوفياء للزيانيين . ولما استولى أبوالحسن المريني على تلمسان والمغرب الأوسط ، رفض معظمُ فصائـــل بني عامر مناصرته،فـــغادروا أراضيَهـــم ولجؤوا إلى الصحراء ، بقيادة شيخِهم سُقيـــر بن عامر بن إبراهيم ،ثم توجهوا نحو الشرق ولحقوا بالدواودة ، ثم توغلوا في الصحراء مدة . ولما استولى أبو الحسن المريني على تونس وبلاد إفريقية ، وَفَدَ سقير بن عامر على أبي الحسن ، فألحقه بجيشه ،وحضر سقير واقعة القيروان ، التي انهزم فيها السلطان المريني وساءت أحواله . و في تلك الأثناء ،دعا ابنه أبو عنان لنفسه بالملك في فـــاس ،

وانتـــهز الأمير الزياني أبو سعيد عثمان هذه الفرصة ، فاسترجع ملك أجداده بتلمسان ، فلحق سقيـــر بن عامر وقومه بعـــاصمة المغرب الأوسط ، وناصروا الأميـــر الزياني . ولكن الأوضاع السياسية تغيرت بعد قليل ، عندما استولى أبو عنان بن أبي الحسن المريني على المغرب الأوسط ، وقضى على إمارة أبي سعيد الثاني الزياني . فالتجأ سقيـــر بن عامر من جديد إلى الصحراء ، مع معظم قومه ، وتشرَّدوا بها إلى وفاة أبي عنان المريني .

وكان سقيـــر بن عامر قد رحل إلى وطن الدواودة ، ونزل على شيخهم يـــعقوب بن علي، واتفق معه على القيام بحركة ضد المرينيين ، والعمل على إحياء الدولة الزيانية ، والدعوة للأميـــر الزياني أبي حمو موسى الثاني . فانتهزوا فرصة وفـــاة أبي عنان المريني ،وكللت محاولتهم بالنجاح في أوائل سنة **760** ه. فـــأصبح بنو عـــامر يشكلون الدعامة الأساسية للدولة الزيانية ، واسترجعوا نفوذهم وأراضيَهم ، وحظِيَ سقيـــر بن عامر بمنزلة سامية في البلاط الزياني إلى أن توفي في شعبان **761** ه .**(2)**

و الجدير بالملاحظة ، فيما يخص التطور السياسي خلال الفترة التي تمتـــد من تفاقم الخطر المريني ، بتـــغلب السلطان أبي الحسن على المغرب الأوسط ، إلى استرجـــاع الزيانييـــن نفـــوذهم وسلطتـــهم بانتصاب أبي حمو الثاني على عرش أجداده ، أن الصراع الذي كان قائمًا بين ملوك بني مرين و بني زيان لم يكن في صالح الدولتين ، حيث إنه

أضعفهم ،و أرغمهم على الاستعانة بقبائل العرب في الحروب التي دارت بينهم . وقد نتج عن مساهمة قبائل العرب في الصراع بين الدولتين دخولُ هؤلاء بقوة في المجال السياسي بالقطرين ، واستفادتهم بامتيازات هامّة ، من أموال وإقطاعات ، جزاءَ تأييدهم وخدمتهم . كما نتج عن عَداء الزيانيين والمرينيين عَداءُ حلفاء الدولتين من العرب ، بني عامر أنصار بني زيان ، وسويد أنصار بني مرين .ويمكن القول إن الحياة السياسية امتازت بهذا الطابع إلى أواخر القرن الثامن الهجري ، و أن هذه الفترة عرفت بروز بني عامر في تاريخ المغرب الأوسط السياسي ، واحتلالهم الواجهة في الحياة السياسية .

وبعد وفاة سقير بن عامر ، كان ينتظر أن تؤول رئاسة بني عامر إلى أخيه خالد ،الذي كان يتمتع بشخصية قوية وشعبية واسعة بين قومه . غير أن أبا حمو الثاني لم يرتض تعيينه و فضَّل عليه أخاه شعَيْبًا ، الأمر الذي أغضب خالدًا ، و جعله ينحرف عن طاعة السلطان الزياني .

وفي تلك الأثناء ، ظهر الأمير أبو زيان ابن السلطان أبي سعيد الثاني ، قادمًا من المغرب الأقصى . فأراد خالد بن عامر أن ينتهز هذه الفرصة ، و أن يجعل أبا زيان هذا منافسًا لأبي حمو.

على العرش ، و يزحف به إلى العاصمة الزيانية قصد الاستيلاء عليها ، وإقامة أبي زيان على عرش آبائه . غير أن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وانتهت بانهزام خالد بن عامر وأتباعه أمام جيش أبي حمو . واضطرَّ هؤلاء إلى الفرار نحو الصحراء . ثم بعث أبو حمو رسله إلى بني عامر قصد مصانعتهم بالأموال والوعود ، وأرضى الكثير منهم .

أما خالد ، فإنه انصرف صحبة الأمير أبي زيان نحو الشرق ، إلى أن بلغ به بلاد الدواودة ، فاستجار بهم وأجاروه (3) . ثم عاد إلى وطنه ، وتمادت الفتنة بينه وبين أخيه شعيب إلى أواخر سنة 764 للهجرة ، حيث دبَّر خالد مقتل أخيه شعيب . ثم وفد على أبي حمو ،راجيًا الحصول على رئاسة قومه ، فأمر أبو حمو باعتقاله (4) .

ولم تنتهِ الاضطرابات بذلك ، بل تواصلت بظهور أمير آخر لمنافسة أبي حمو على

العرش، هو أبو زيان بن أبي تاشفين الثاني ، الملقب بالقُبِّيّ ، الذي توجه إلى المناطق الشرقية ، فانضمَّ إليه جموع العرب ، و انحاز إليه بنو عامر ، و زحف الجميع إلى الناحية الغربية .وتصدَّى لهم أبو حمو بجيشه فلقيهم بالبطحاء ، و لكنه انهزم هزيمة كبرى في ذي الحجة سنة 765 للهجرة ، و لم يجد سبيلاً للنجاة غيرَ إطلاق سراح خالد بن عامر ، بعد أن " أحسن إليه بما لا مطمح وراءه لأمثاله ، واستحلفه على الوفاء بطاعته ،والكدح في خدمته،وكيد الأعداء بحل عرى عزماتهم الفاسدة "(5). ووفى خالد بعهده ، فصرف قومه عن مناصرة أبي زيان القبي ، مما أضعف شأنه وأوهى قواه ، وقصدوا إلى مشاتيهم بالصحراء .

وهكذا ، اتضح أن خالد بن عامر وأتباعه لم يمنحوا الطاعة والخدمة لأبي حمو إلاَّ بعد تلبية السلطان الزياني لمطالبهم المتمثلة في الحصول على الإقطاعات والأموال ،والاعتراف لهم بامتيازات ترضيهم ، وتخلهم منزلةً سامية في الدولة . وأدرك أبو حمو أن بقاءه على العرش مرهون بتأييد بني عامر .

وبقِيَ الوضع على هذه الحال إلى أن نهض أبو حمو بجيوشه قاصدًا الاستيلاء على بجاية ،

فمنِي بهزيمة شنعاء ، في ذي الحجة سنة 767 للهجرة .وعندئذ عاد أبو زيان بن أبي سعيد الثاني إلى منافسة أبي حمو ، فالتفت معظم قبائل العرب حوله ، واندفعوا كالسيل إلى أراضي التل

الواقعة شمال أراضيهم ، فاحتلوها خلال سنة 768 للهجرة ، وحملوا أهاليَها على دفع الإتاوة لهم ، " فاستولى بنو يزيد على بلاد حمزة وبني حسن كما كانوا من قبل ... واستولى بنو حُصَيْن

على ضواحي المدية إقطاعًا ، والعطاف على نواحي مليانة ، والديالم على روينة ،وسوَيْد على بلاد

بني توجين كلها ، عدا جبل وانشريس لتوعره ... وبنو عامر على تاسالة وملاتة إلى صيدور إلى كيدزة الجبل المشرف على وهران ، وتماسك السلطان بالأمصار ، وأقطع منها

كلميتو لأبي بكر بن عريف ، ومازونة لمحمد بن عريف ، ونزلوا لهم عن سائر الضواحي فاستولوا عليها كافة ، وأوشك بـــهم أن يستولوا على الأمصار. و كل أوَّل فإلى آخِر ،ولكل أجل كتاب ، وهم على ذلك لهذا العهد "(6) .

هذا ، ولسنا ندري هل كان تمركز بني عامر في ناحية تـــاسالة وملاتة عن طريق سِلميَّـــة، بإقطـــاع من أبي حمو الثاني ، أو عن طريق الاستيـــلاء . و الظاهر أن السلطان الزياني وجد نفسه مضطرا على إقرارهم بهذه المنطقة و إقطاعها إياهم ، ليتمكن من درء خطر منافسه أبي زيان بن أبي سعيد الثاني ، والحفاظ على عرشه . وبـــهذا ، فقدَ ملوك بني زيان جانبًا هامّا من نفوذهم في جزء كبير من مناطق التل ،حيث إن بني عامر وغيرَهم من قبائل العرب قد استقروا في القرى والأرياف واستولوا على جبايتها ، ونالوا بذلك أكبر انتصاراتهم في المغرب الأوسط .

أما خالد بن عـــامر ، فإنه عاد إلى مناصرة أبي زيان ، مع بعض أتباعه ، غير أن محاولتهم باءت بالفشل وانهزموا في معركة بتانيرا، قرب تاسالة ، فاضطـــرَّ على الإصحار .ثم شاهد ، مع المخالفين ، المعركة التي هُزمَ فيهـــا أبو حمو شـــرَّ هزيـــمة ، قرب البرواقية ، في شوال سنة **796**للهجرة (7) . و لما أقبلت جموع المخالفين إلى سيرات ، بقصد القضاء على عرش أبي حمو ، لم يبق لهذا الأخير إلاَّ أن يُرْضِيَ خالد بن عـــامر وأبا بكر بن عريف السويدي و أتباعهما ، " فأرســـل شِيَعَه فيهم بالانخزال عنهم ، و دسَّ لسائرهم الأطماع ،فافترقت كلمتهم و تخاذل لِفهم ، فبادر خالد بن عامر وأبو بكر بن عريف وأخوه محمد بالبعث إليه ...وجاء الصفح والأمان ، فلم تأبَ عليهم سياسته الفضلى " (8) ، وذلك في آخر سنة 769 للهجرة .ورضِيَ خالد بن عامر بشروط أبي حمو الثاني ، من الإقلاع عن مساندة أبي زيان وإخراجه عن القطر ، و أصبح يُخلص الطاعة للسلطان الزياني ، بعد أن نال منه ما نال من امتيازات وأموال .

فهذه الأحداث ، إن دلـــت على شيء ، فإنـــما تدل على مِيـــزة رئيسيـــة للتحـــولات الاجتماعية بالجزائر ، وتتمثل في انتقال مستمرٍّ لفئات العمران البدوي في اتجاه

عبر مراحل ، تختلف حسب الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية . وقد اقتصرنا على ذكـــر مرحلة حاسمة من هذه المراحل ، لعلاقتها المـــاسَّة بالنسيج السكاني لمنطقة الغرب الجزائري عامَّـــة ، ومنطقة سيدي بلعباس خاصَّـــة . وتاريخ بني عامـــر حافـــل بالأحداث ، التي ترك بنـــو عـــامر خلالها بصَمـــاتهم ، وساهموا مساهمـــة فـــعَّالة في تبَلور الشخصية الوطنية وإثرائها بمميِّزاتهم الخلقـــيَّة والثقـــافيَّـــة .

الهوامش

(1) **انظر : عبد الرحمن ابن خلدون ، العبر ، ج 6 ، ص** 105 .
(2) **انظر : العبر ، ج6 ، ص** 111 ؛ **يحيى ابن خلدون ، بغية الرواد ، ج2 ، ص** 78 – 79 .
(3) **انظر : بغية الرواد ، ج 2 ، ص** 112 – 113 .
(4) **نفسه ، ج 2 ، ص** 135 – 136 .
(5) **نـــفـــسه ، ج2 ، ص** 150 .
(6) **العبر ، ج6 ، ص** 101 – 102 .
(7) **انظر : بغيـــة الرواد ، ج 2 ، ص** 202 – 206 .
(8) **نـــفـــسه ، ج2 ، ص** 207 .